فى الاجتماع

المثل الأعلى للزوجيـــــــــة

بقلم الأستاذ مصطفى جاد أبو العلا
دبلوم دار العلوم

الزواج وعلاقته بالمجتمع :

الزواج : هو الوسيلة إلى تكوين العائلة ؛ ولما كانت العائلة هى نواة الهيأة الاجتماعية ، فإن كل ما يمس شرائع الزواج وعاداته يمس أساس النظام الاجتماعى .

ولما كنا أيضاً نعيش فى زمن قد تزعزعت فيه العادات والعقائد إلى حد كبير ، ودخل الشك فى جميع طرائق العيش والنظر والتفكير ، حتى صار كل شاب يشعر كأنه يبتكر طريقة جديدة فى الحياة ويتساءل عن معنى السعادة وقيمة الحب ، فإن البحث فى الزواج قد أصبح من الموضوعات التى تشغل بال الكثيرين، ممن يهمهم مصير الحضارة الراهنة .

ولم يكن من الغريب أن يشمل التنبه العام الذى يجعل الأمم والأفراد تفكر فى جميع الأنظمة الاجتماعية « هذه العلاقة الزوجية » بل يشرع بعضها فى تجارب جديدة بغية الوصول إلى أحسن الحالات التى تستقر فيها العائلة، وهذه التجارب ، مع مافيها من فوضى وتخبط ، هى دليل الحياة والرغبة فى الأصلاح ؛ فالتفكير وابتكار الطرق الجديدة ، مع مافيها من التعرض للخطأ ، خير من الاستسلام والاستنامة للعادات القديمة ، والعرف السائر .

وفوق ذلك فهو حالة دعت إليها طبيعة البشر ، ففرضتها الشرائع الالهية ، وهو سنة الله فى خلقه لدوام العمران ، بل فرض على كل إنسان ؛ لأنه مكمل لنقصه ، حافظ لكيانه ، صائن لكرامته وشرفه ، فهو إذن رباط دينى طبعى مدنى صحى ، وقد اتفقت الشرائع والأديان كافة على ضرورته لاقامة صرح العائلة ؛ وحفظ النوع البشرى من الانقراض، وصون الانسان من الخطيئة والذنوب، وإيجاد التآلف والارتباط بين أفراد ذلك النوع ، وقد قال تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ومعنى السكون فى الآية الكريمة : الأنس بهن ، والاعتماد عليهن فى جلب المنافع ودفع المضار ؛ وتوثيق عاطفة المودة والرحمة ؛ حتى يكون من ثمرة ذلك كله ، النسل الذى عليه مدار الاجتماع الانسانى ؛ فهو

العامل الطبعي الأول لتكوين «الأسرة» رأس العمران الذى لولاه لاختل نظام الكون، وانقرض عقد نظامه.

والأسرة: كلمة صغيرة المبنى، إلا أنها كبيرة المعنى عند علماء العمران، إذ فيها تندمج معانى المدنية والارتقاء والنظام، والطبيعة البشرية باعثة للانسان على الزواج لما ثبت فى نفسه من الشعور بالحاجة إلى شريكة تقاسمه نعيم الحياة وبؤسها، ومثل هذا الشعور فى المرأة يدفعها إلى التماس الرجل تتخذه عونا وأزرا لها فى الملمات، وسنداً تطمئن إليه فى مشاق الحياة، ومن ثم تتكون فكرة الارتباط بين الزوجين؛ فيمتزج كلاهما بالآخر قلباً وقالبا، وتتجلى فيهما معنى الانسانية الصحيحة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

بالزواج يجد الزوج من زوجه خير رفيق فى الحياة يشاطره السراء والضراء، ويصون نفسه وعرضه وماله وصحته، ويخلد بأبنائه منها ذكراه فى هذه الحياة، وغير ذلك فهو عقد شريف تتوثق به أركان الهيئة الاجتماعية، وتقوم على أساسه الحضارة والعمران؛ فالزواج والحضارة متلازمان، وكلما اشتدت روابط الزوجية تضاعفت العوامل الباعثة على الحضارة والارتقاء.

وقد فك الزواج عن النساء قيود الذل والاستعباد، وأنقذهن من بيئات السقوط، فقسم الناس (وكانوا جمعاً واحداً) إلى أسر يتميز بعضها عن بعض، وأوجد الحاكم المنزلية، وربى رجالا فى البلاد، ومد أنظار الناس إلى المستقبل بما بثه فيهم من الميل إلى ذريتهم، وزاد عطف الأفراد بعضهم على بعض، وهو يكسب الرجل الشهامة وكظم الغيظ والرزانة وسرعة الخاطر وقوة الفهم وحدة الذهن والحزم والعزم والاقدام والاعتماد على النفس فى الحياة، كما يبعث فى المرأة الهمة والنشاط والغيرة والعفة وحسن المعاشرة .

لولا الزواج لما كنا ولا كانت   هذى البلاد ولا شيدت مبانيها
إن الزواج يصون النفس يعصمها   عما يحيط بعلياها ويزريها

وقد قال ابتراط: « الزواج مصدر آداب المجتمع الانسانى » وقد قال تلر « الزواج قوام العالم، وهو الذى يبنى المدن ويعلأ البيوت والمعابد » وقال مونتنى « فى الزواج الفائدة والعدل والشرف والثبات وهو شركة جليلة المنافع قيامها على العهود المتبادلة » :

الخطبة

إذا كان الزواج من الخطورة فى الحياة بمكان، فلا بد أن يعتنى باختيار الحجر الأول للأساس حتى تكون حياتنا مشيدة على صرح ممرد، وهو كتاب ومقدمته الخطبة.

وقبل أن نتكلم فى الخطبة نأتى بلمحة من عاداتنا المتبعة فيها.

أول تلك العادات التى طالما أفسدت علينا أمر مستقبلنا، هو أن تذهب أم الزوج أو أخته أو الخاطبة

المأجورة إلى بيت « العروس » ، ومن المعلوم أن الأم أو الأخت مثلا لايهمها إلا أن الزوجة تحسن الطهى مثلا، أو شعرها جميل، أو عيونها دعجاء، أو جسمها خصب، وهكذا، ولا تنظر إلى إلى ماوراء ذلك مما عليه دعامة الأسرة من الأخلاق الفاضلة، والتربية الحقة، والآداب الكاملة، وفوق ذلك لايمكنها أن تحكم على وفق ميول الزوجين حتى ينتهى هذا الزواج بالسعادة، كذلك الخاطبة المأجورة لايهمها إلا ماتتقاضاه من الأجر؛ فتذهب إلى منزل « العروس » ترغبها وآلها فى الزوج مهما كان منظره أو كانت طباعه أو أخلاقه، حتى تكسب رضاهم جميعاً على هذا الزوج؛ ثم تعود وتحمل للزوج من الألفاظ الطلية والقول المزخرف، مايجعل الزوج يقدم على هذا الزواج الذى ربما يكون نواة شقائه، وسبب تعاسته، وانهيار مستقبله؛ وهو الغالب، وقد قيل « ما كل راء خاطباً، وما كل خاطب جادا فى خطبته » فما أغرب القاعدة التى نسير عليها فى مسألة الزواج فى وقتنا الحاضر! ما أغربها لأننا مع استقباحنا الغش واستنكارنا له نجعله أس صرح الزواج، وكثيرون عندنا ذهبوا ضحية هذا الغش، فقضى عليهم قضاء لايفرق بشىء عن القتل، والغشاشون الجناة لايطالبون بجريمة ولا يؤاخذون بذنب.

فطريقتنا هذه فى الزواج مجحفة بحقوق الزوجين، وهل عادة أقبح من أن يساوم فرد آخر على حرية شخص، على أن تنتهى هذه المساومة باجتماع شخصين معاً فى مسكن واحد قبل أن يرى أحدهما الآخر، أو يعرف شيئاً عن أخلاقه وعاداته؟!

لقد أباح الشرع الشريف لنا أن يخطب الرجل زوجه ويبصر مخطوبته، والنظر رسول القلب، والاستحسان علة الحب، والحب علة ذلك الكون الذى هو ركن السعادة وسر حقيقة الزوجية، وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة حين خطب امرأة « أنظرت إليها؟ » أجاب: لا: فقال عليه السلام « انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أن النظر خليق بأن يصلح بينكما ليدوم بينكما الوفاق: فاذا لم ترق المخطوبة فى عين خطيبها بعد رؤيتها، وامتنع عن الاقتران بها فماذا يكون الحال؟ الجواب: يجب ألا تنشر الخطبة قبل الزواج.

كيف يخطب الرجل قرينته؟

لهذه المناسبة يستحسن أن أقول: إن الشريعة السمحاء لم تبح معاشرة الرجل خطيبته للوقوف على طباعها وأخلاقها وعاداتها كما يفعل الغربيون قبل العقد الشرعى، وذلك خشية الفتنة، ومع هذا، فالمعاشرة قبل الزواج لاتكشف اللثام عن حقيقة الأخلاق والطباع، لأن الفتاة إذا كانت بمرأى ومسمع من خطيبها، تتكلف الظهور أمامه بالمظهر الذى تتوقع أنه يرضيه، كما يحاول هو أيضاً التجمل بالصفات الحميدة ليروق فى نظرها، فاذا ماتم الزواج ارتفع الستار عن الأخلاق الحقيقية، وانكشف الطلاء الذهبى عن خبث الحديد، وهنا يقعان فى شرك البؤس والشقاء: فالشريعة حقاً قضت بما فيه مصلحة الفريقين؛ ولكنى لا أزال أعتقد بأن السماح برؤية المخطوبة

لا يفيد كثيراً: لأن للرؤية نظراً خادعاً في بعض الأحيان، كما أن استحسان الصور في تخير الأزواج لا يكفي، وخصوصاً أن الزواج في العادة يعقد في سن الشباب، وهي السن التي تتأجج فيها العواطف والشهوات. والشاب كثيراً ما يعتقد أن السعادة لا تكون إلا بالحب، وهو بالطبع قد يحب لنظرة؛ وهذا اعتقاد صالح، فإن الحب جوهر لا يخلو منه قلب بشر، لأنه تكون بوساطته، وهو من أشرف العواطف التي تهذب بها النفس، ومن أكبر المؤثرات على قلب المحب وأخلاقه وميوله، حتى أن هذا السر العجيب الذي يدعونه «حبا» قد يجعل الشرس وديعاً، والقاسي حنوناً شفيقاً، والمتصلب ملايناً، والمحارب مسالماً، وهو جوهر يمتاز به الانسان عن كل مخلوق في الوجود إن لم يدنسه ويلقه في الأقذار.

والفضل لمن بدد عن حبه غيوم الفساد، وجعله يظهر للعموم بنوره المتلألىء، والواقع أن السعادة لا تكون في شيء من الأشياء: في الزواج، أو العمل، أو المعيشة، أو غيرها حتى تشعر فيها بالرقي المتواصل، ونرقى منها إلى هذا الرقي، فادمنا في ارتقاء فنحن في تطور هاتين بهذا التطور الذي هو لباب النفس الانسانية.

ولذلك فإن الحب يثبت ويبقى إذا كان مقروناً إلى التبعات التي يتطلبها الرقي، فهذه التبعات تغذوه وتنميه وتتسامى به؛ وهذه التبعات هي التي تلجئني إلى استباحة الشريعة السمحة بالمعاشرة قبل العقد الشرعي، وإلى جانب هذه التبعات عدم علم المخطوبة بأن هذا الشاب يريد الاقتران بها، وبذلك يتمكن من عجم عود أخلاقها، ودرس آدابها، وتربيتها، وعاداتها، فلا تتكلف خلاف طبيعتها التي فطرت عليها، وما دام الشاب متيقظاً إلى هذه التبعات، ويقدر مستقبله، لا يمكن أن تتطلع نفسه إلى ما دون ذلك من خيانة، حتى يعبث بعفاف الفتاة كما يظنه البعض بسبب الاختلاط قبل العقد الشرعي، وعلى ذلك لا نخشى الفتنة التي يحذرنا الشرع منها ممن يريد الزواج حقاً.

وإن تكلمت الآن لا أتكلم إلا عن شخص طاهر النفس، كريم المحتد يريد مستقبلا زاهرا لا تشوبه شائبة أو يمسه غبار.

ونستدل على مسئولية التبعات وأهميتها بمقارنة هاتين الدولتين:

الزواج الفرنسي، مع أنه لا يقوم على الحب بل ينطوي في الأكثر على اعتبارات مالية، يعيش ويدوم أكثر من الزواج الروسي القائم على الحب، أو ما يعتقده الشاب الروسي أنه حب، وذلك لأن المتزوجين في فرنسا يرميان من زواجهما إلى تأسيس أسرة يشتركان في تقويمها ودعمها بالمال، فإذا لم يكن بينهما حب فهذا الاشتراك في القصد والوسيلة يربطهما مدى الحياة، ولست بذلك أنقص قيمة الحب، بل أعني أن الشاب كثيراً ما يخطىء معناه وينظر إليه باعتباره جوعاً جنسياً، وهو بهذا الاعتبار سريع الفناء لا يثبت عليه بناء الأسرة، أما إذا نظر إليه كوسيلة للرقي، لها تبعاتها، فإنه بلا شك يكون من أوكد الوسائل لتحقيق السعادة.

وبجانب ما تقدم لا ننسى أن استشارة البنت حق من حقوقها قبل زواجها، ولكن الكثيرين يزوجون بناتهم من يشاءون، مخدوعين بالأحوال الظاهرة والدراهم الوفيرة، غير مراعين النسبة بين الزوجين، فيقذفون ببناتهم في هذه التعاسة والشقاء، ويسدون في وجوههن أبواب الرحمة والمناعة، ويميتون في نفوسهن روح العمل، بل وما انبث فيها من العواطف بالتربية القويمة، فتصبح الفتاة المسكينة كحبة زرعت في أرض مجدبة، أو في غير أوانها، فلا نبات ينبت، ولا ثمرة ترتجى، وسرعان ما ترى الخلاف حل محل الائتلاف.

الزواج أمر خطير الشأن، كما قيل «الزواج حياة أو موت، وليس هناك بين بين» يجب الامعان فيه قبل الاقدام عليه، والزواج الذي يبنى على غايات وما رب، ولا ينظر فيه إلى ائتلاف قلبي الزوجين هو زواج فاسد، وغير ذلك فان الزواج القهري الذي تذهب إليه الفتاة أو الفتى انصياعاً لأمر الآباء أو أحد الآل ليس بزواج، بل هو علة ومرض يتقوض بناؤه بزوال ذلك الغرض، بل هو المصيبة الدهماء في الليلة الظلماء.

إن للآباء حقاً على البنين، لكن لذلك الحق روابط وحدوداً، حقا إن للأبوين سلطة تخولهما تسيير أبنائهم في الطريق التي يستحسنونها، ولكن من الشروط اللازمة أن يكون لهما خبرة ودراية وحكمة يعرفان بها كيفية التأثير على ميول الأبناء وعواطفهم، ويجب أن يخضع الأبناء لتلك السلطة طالما الوالدان يقدمان الواجب على العاطفة، وطالما يحكمان عن ضمير حي، ووجدان سليم، نرى الشاب يبحث عن فتاة توافقه ليجعلها رفيقة حياته فيجدها، لكنه لا يأمن قبول والدته لها مثلا، لأن تلك الوالدة تكون قد عرفت فتاة بشت لها وتوددت إليها، مظهرة لها خضوعاً وانقياداً، وما أكثر اغترار أمهات الشبان بزلفات البنات الطامعات في رضاهن، ولا يلبث الولد أن يعلن لوالدته رغبته في الزواج ممن اختارها لنفسه رفيقة، حتى تهب لتبيان نقائص تلك التي اختارها، حتى ولو لم يكن فيها نقيصة، وعبثاً يحاول إقناع والدته وحملها على الرجوع عن حكمها، فيجب على ذوي الأمور أن يمنحوا أبناءهم حرية الاستشارة حتى يتم بين الزوجين الوفاق، كما أنه يجب على البنت أن تكون صريحة وإلا ساء المآل.

إن أرغموك على زواج فاسد ذرهم فصفو المرغمين شقاء
ولتذكرن العلم إثر عفافها ولتنبذن المال فهو هواء

مصطفى جاد أبو العلا